الفصل الثالث

من حكمه

«كرم الله وجهه»

obeikandl.com

obeikandl.com

البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلدته.

العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جُنة، ونعم القرين الرضى.

العلم وراثة كريمة، والآداب حُلل مجددة، والفكر مرآة صافية.

وروى أنه قال في العبارة عن هذا المعنى أيضا: المسألة خباء العيوب، ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه.

الصدقة دواء منجح، وأعمال العباد في عاجلهم، نُصب أعينهم في آجالهم.

اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم!!

إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنّوا إليكم.

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.

أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم.

وسئل عن الإيمان: فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. والصبر منها على أربع شُعب: على

الشوق، والشفق[1]، والزهد، والترقب: فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات؛ ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات؛ ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات؛ ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. واليقين منها على أربع شُعب: على تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين. فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة؛ ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين. والعدل منها على أربع شُعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم؛ ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم؛ ومن حلم لم يفرّط في أمره وعاش في الناس حميدا. والجهاد منها على أربع شُعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن[2] الفاسقين: فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين؛ ومن صدق في المواطن قضى ما عليه؛ ومن شنئ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة. والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق: فمن تعمق لم ينب إلى الحق؛ ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماد عن الحق؛ ومن زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سُكر الضلالة؛ ومن شاق وعرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه. والشك على أربع شُعب: على التمارى[3]، والهول، والتردد، والاستسلام: فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليله؛ ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه؛

---

(١) الخوف.

(٢) البغض.

(٣) التجادل لإظهار قوة الجدل لا لإحقاق الحق.

ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين؛ ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما.

طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله.

سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك.

قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته، وعفته على قدر غيرته.

احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة.

الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.

القناعة مال لا ينفد.

قال الرضي: وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال عليه السلام: قيمة كل امرئ ما يحسنه.

قال الرضي: وهي الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا: لا يرجونّ أحد منكم إلا ربه، ولا يخافنّ إلا ذنبه، ولا يستحينّ أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحينّ أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان كالرأس

من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه.

لا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا كرم كالتقوى، ولا قرين كحسن الخلق، ولا ميراث كالأدب، ولا قائد كالتوفيق، ولا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح كالثواب، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام، ولا علم كالتفكر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حسب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا عز كالحلم، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة.

اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا، وإما خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته. وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك ـ والله ـ الأقلون عددا، والأعظمون عند الله قدرا. يحفظ الله بهم حججه وبيّناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا[1] ما استعوره[2] المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه. آه آه شوقا إلى رؤيتهم! انصرف ياكُميل إذا شئت.

المرء مخبوء تحت لسانه.

هلك امرؤ لم يعرف قدره.

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه:

---

(١) عدّوا الشيء لينا

(٢) عده وعرا خشنا.

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجّي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أُعطي لم يشبع، وإن مُنع منها لم يقنع؛ يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي؛ ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي؛ يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويُبغض المذنبين وهو أحدهم؛ يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادما، وإن صح أمن لاهيا؛ يُعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتلي؛ إن أصابه بلاء دعا مضطرا، وإن ناله رخاء أعرض مغترا؛ تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن؛ يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله؛ إن استغنى بطر وفُتن، وإن افتقر قنط[1] ووهن[2]؛ يُقصّر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل؛ إن عرضت له شهوة أسلف[3] المعصية، وسوّف[4] التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة. يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ؛ فهو بالقول مدل[5]، ومن العمل مقل، يُنافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى. يرى الغُنم[6] مغرما[7]، والغرم مغنما؛ يخشى الموت، ولا يبادر الفوت[8]؛ يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من

---

(١) من القنوط أي اليأس.

(٢) من الوهن أي الضعف.

(٣) قدّم.

(٤) أخّر.

(٥) أدل على أقرانه: استعلى عليهم.

(٦) الغنيمة.

(٧) المغرم: الغرامة.

(٨) فوات الفرصة وانقضاؤها.

طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن؛ اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره؛ يُرشد غيره ويُغوى نفسه، فهو يُطاع ويعصى، ويستوفى ولا يُوفى، ويخشى الخلق فى غير ربه ولا يخشى ربه فى خلقه.

قال الرضى: ولو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة، وحكمة بالغة، وبصيرة لمبصر، وعبرة لناظر مفكر.

لا يعدم الصّبور الظفر وإن طال به الزمان.

وسئل عليه السلام: أيهما أفضل: العدل، أو الجود؟ فقال عليه السلام: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يُخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما.

الناس أعداء ما جهلوا.

الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم».